اليهود واليهودية "توطن اليهودية"

عبد القادر العزة*
abdulqader.alazzeh@gmail.com

مقدمة: لا يخفى أنه لكل قوم وكل شعب له بداية ونشأة، وله كذلك تاريخ يختص به. وقد تتعدد الدراسات وتختلف من منهج لآخر حول محاولات التتبع التاريخي القديم، وخاصة حول حركة التواجد اليهودي ومقومات النشأة الأولى للتاريخ اليهودي على وجه الخصوص. ورغم الدراسات العديدة التي تناولت نشأة الديانة اليهودية إلا أن الغموض ما زال يلف الكثير من جوانب هذه النشأة والكثير من مراحل تطورها، إلى درجة يصعب معها إعطاء رأي قطعي بشأن أصول أو منابع الديانة اليهودية وحقيقتها، ولكن يمكن القول أن هناك إجماع بين المؤرخين حول بعض الروايات والأحداث المتعلقة بالنشأة الأولى للتاريخ اليهودي.

وتحتل الديانة اليهودية مكانة مهمة في تاريخ الحضارة العروبية وكذلك في تاريخ الأديان، فهي أقدم الديانات التوحيدية، كما لها علاقة دينية بكل من المسيحية والإسلام، بالإضافة إلى أهميتها في فهم التاريخ اليهودي. أضف إلى ذلك أن اليهودية تلقت عدة تسميات خلال تاريخها الطويل، ففي المرحلة الأولى من نشأتها سميت بديانة الآباء والمقصود بالآباء مجموعة الشخصيات النبوية التي تبدأ بآدم عليه السلام وتنتهي بموسى وهارون عليهما السلام[1]، ومن أشهر الآباء على الإطلاق إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام وأبناء يعقوب (بنى اسرائيل). ويتجه بعض المؤرخين اليهود إلى ضم آدم ونوح إلى مجموعة الآباء وذلك لتبرير الروايات التوراتية الخاصة بهما والتأكيد على عودة سلسة الأنساب الخاصة ببنى اسرائيل إلى بداية الخليقة. والشخصية المحورية في عصر الآباء هي شخصية إبراهيم الذي ينسب إليه عصر ديني مستقل يبدأ به تاريخ الديانات السماوية[2].

ومن الضروري التمييز بين عصر إبراهيم الخليل العربي (بني إسرائيل) وبين عصر موسى (اليهود)، باعتبارهما عصرين منفصلين لا صلة للواحد بالآخر، لأنهما على ما نفهمه من التاريخ المبني على الاكتشافات الحديثة عصران منفصلان بشكل كبير، فبينهما فاصل يمتد عبر الزمن إلى أكثر من سبعمائة عام[3] وكل عصر من هذه العصور ساهم في ظهور الديانات السماوية.

وقد كانت قبائل بنو إسرائيل أول من دان باليهودية، غير أنه لم يعد لهم أثر بعد انحلت أواصرهم القبلية وامتزجوا بشعوب أخرى في شبه الجزيرة العربية وفي غير شبه الجزيرة العربية، وهذا ما حدث لغيرهم من الجماعات البائدة. أما الديانة اليهودية، فهي ديانة توحيدية وضعت أسسها أصلاً على أيدي أنبياء من بني إسرائيل، بناءً على توراة موسى عليه السلام. وكما ذكرنا بأن بني إسرائيل أول من دان باليهودية، لكنهم لم يكونوا وحدهم اليهود في زمانهم، فربما انتشرت الديانة اليهودية على أيديهم أول الأمر ولكنها استمرت في الانتشار بعد زوالهم وانقراضهم. ولازالت هذه الديانة اليهودية منتشرة في معظم أرجاء العالم بين شعوب مختلفة بعيدة كل البعد عن بني إسرائيل من ناحية اللغة والعرق، مع العلم بأن هناك البعض من بني إسرائيل القدامى لا بد أنهم انصهروا في المجتمعات اليهودية التي انتظمت في مختلف الأقطار بعد زوال ملك إسرائيل، وفي المقابل هناك عناصر من شعب إسرائيل انصهرت في مجتمعات عربية، مصرية أو يمنية، أو شامية، أو عراقية، واعتنقت مع مرور الزمن المسيحية والإسلام[4].

ولقد كانت الجزيرة العربية هي مهد الديانات الثلاث ومهد الحضارة العروبية، وأن تشابك القبائل بعضها ببعض وتفاعل نشاطها في سبيل الحصول على حياة أفضل، أدى إلى تشكل أمة مجتمعية عربية واحدة. تعززه وحدة جغرافية واحدة مترابطة الأجزاء تضم الجزيرة العربية (الأم) وأبناءها في بلاد المهاجر إليها. (وادي الرافدين وسوريا ولبنان وفلسطين إلى مصر السفلى). الكيان الذي انبثقت منه أقدم الحضارات وأعظمها مما عرفه العالم في تاريخ البشرية، أي الإمبراطوريات العروبية الخمس: الأكادية، والبابلية، والآشورية، والكلدانية، وأخيراً الإمبراطورية العربية الإسلامية[5].

الإطار المفاهيمي: تتضمن المقالة البحثية العديد من المفاهيم النظرية التي تم اعتمادها في بناء هذه الدراسة نورد بعضها فيما يلي:

العبرانيون: كان هذا المصطلح يطلق على القبائل العربية في شمال جزيرة العرب أي في بادية الشام وعلى غيرهم من الأقوام العربية في المنطقة حتى صارت كلمة عبري مرادفة لابن الصحراء أو ابن البادية بوجه عام. وهم القبائل البدوية العربية ومنها القبائل الآرامية العربية التي ينتمي إليها إبراهيم الخليل نفسه[6]. تعتبر هذه التسمية من أقدم التسميات التي عرف بها بنو إسرائيل في التاريخ، فهناك من يربطها بالاسم "عبرى" ويرجع ذلك إلى عبور نهر الفرات الذي عبره إبراهيم ومن معه، بعد أن هاجروا[7].

إسرائيل: إسرائيل كلمة عبرانية مركبة من "إسرا" بمعنى: عبد، ومن "إيل" وهو الله، فيكون معنى الكلمة: عبد الله، المقصود به يعقوب حفيد إبراهيم الخليل عليه السلام، وأبناؤه وهم إسرائيل الذي ورد ذكرهم في الأسفار ودورهم محضور في منطقة حاران حيان حالياً[8]. وبني إسرائيل كانوا في غابر الزمن شعباً تاريخياً عاش غرب الجزيرة العربية، متحولاً فيها على مراحل من البداوة إلى التحضر[9].

اليهود: هي التسمية الثالثة في الترتيب التي عرف بها اليهود وتأتي بعد التسميتين الأقدم "عبرى" و"إسرائيلى" من ناحية الظهور التاريخي والاستخدام. وهي التسمية التي اطلقت على بقايا جماعة يهوذا، وقد سموا كذلك نسبة إلى مملكة يهوذا المنقرضة[10].

العروبية: أطلق الباحثون الغربيون على مجموعة اللغات التي عرفها الشرق القديم "اللغات السامية"، وهي تسمية غير سليمة لكثير من الأسباب، أبسطها علمي، ونحن نميل إلى تسميتها باللغة العروبية، والمتحدثون بها بالعروبيون، كما اقترح ذلك باحثون عرب مرموقين، أمثال الدكتور أحمد شحلان. لقد ارتبطت اللغة العربية بأهلها الذين تحدثوا بها، والذي يعنينا هنا هذه اللغة التي تحدث بها هؤلاء العرب في ماضيهم وفي أرض تعدت حدودها ما يعرف بالجزيرة العربية وفاقتها مساحة أضعافاً مضاعفة. وتتكون هذه العائلة من لغات شغلت عالماً شاسعاً جمع ما بين أرض الهلال الخصيب وبلاد فارس (آرامية) وأرض الشام القديم واليمن والجزيرة العربية وامتداداتها، وكل الأرض التي أصبحت جزءاً من أرض الإسلام، باعتبار أن هذه بدأت تستعمل اللغة العربية منذ قبولها الإسلام[11].

وتتناول هذه الورقة البحثية موضوع اليهود واليهودية قبل الإسلام أي قبل ألفين سنة قبل الميلاد، أي في مراحل نشأتها الأولى وذلك من خلال مجموعة من أهم الكتب الدينية، وكتب الباحثين في الحفائر والآثار ولاسيما الكتب التي تعمد مؤلفوها أن يبحثوا في موطن السيرة من الألف الثانية قبل الميلاد، بين آثار العراق وفلسطين ومصر والجزيرة العربية. وبعض من المقالات المهمة التي أشارت بشكل واضح ومفصل للأصول العربية لليهودية.

تأسيساً على ما تقدم رأينا طرح السؤال الأساسي التالي: **إلى أي حد يمكن اعتبار اليهودية ديانة ممهدة لظهور الديانات السماوية (المسيحية والإسلام)، انطلاقا من كونها ديانة عربية ذات أصول حضارية عروبية**؟ وكإجابة أولية على هذا السؤال، تنطلق هذه الدراسة من **فرضية** أساسية مفادها أنه عند الحديث عن اليهود واليهودية من الضروري العودة إلى الأصول الحضارية وتاريخهم البشلخي الذي تكون وظهر قبل ميلاد سيدنا عيسى إلى رسالة خاتم الأنبياء سيدنا محمد عليهما السلام، وأنه ما من عقيدة دينية ظهرت للناس طفرة بغير سابق، وما من عهد من عهود الأديان إلا وبينهما تمهيد وتعقيب. لذلك لا يمكن إنكار أن الديانة اليهودية كانت ممهدة للديانات السماوية. . ولمعالجة سؤال هذه الورقة رأينا أن تناولها عبر المحاور ثلاث رئيسة: أولها بعنوان "**سيدنا ابراهيم أبو الأنبياء" وهو** محور يلقي الضوء على عصر سيدنا ابراهيم الخليل الذي يعتبر عصراً منفصلاً ومستقلاً بلغته ووطنه عن عصر سيدنا موسى الذي جاء لاحقاً له. وذلك لأن ما نفهمه من التاريخ أنهم عصران منفصلان لا يرتبط الواحد بالاخر بأية صلة. معتمدين في ذلك على المرجع الأساسي التالي؛ أحمد سوسة، ***العرب واليهود في التاريخ***، ويأتي الاعتماد على هذا المرجع لما له من أهمية في توضيح هذه الحقيقة بدقة متناهية وإثبات الأصول العروبية لأبو الأنبياء سيدنا إبراهيم الخليل الذي جاء لجميع البشر بالمرجعية التنزيهية التوحيدية.

عصر النبي موسى (التوراة) هو محور ثانٍ معني بعصر موسى عليه السلام الذي بدأ في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وهو عصر متصل بمصر، قائم بذاته أيضاً بلغته وثقافته وديانته. وأن هجرة سيدنا موسى والموسويين من مصر القديمة، إلى أرض كنعان، هي الفترة التي يمكن أن نطلق عليها تسمية الفترة المصرية الكنعانية. بالرجوع إلى المرجع الأساس التالي: محمد بيومي مهران، ***بنو إسرائيل منذ إبراهيم وحتى عصر موسى عليهما السلام***؛ وتمت الاستعانة بهذا المرجع في الدرجة الأولى للتمييز بين التوراة التي نزلت على النبي موسى وبين التوراة التي كتبها اليهود بعد ثمانيمائة عام من عهد سيدنا موسى وبعد ألف وخمسمائة عام من عهد سيدنا ابراهيم الخليل.

صلة اللغة العبرية باللغة العروبية: إننا هو المحور الثالث يلقي الضوء على عالم عربي واحد ووحدة وجغرافية واحدة مترابطة الأجزاء تضم الجزيرة العربية ووادي الرافدين إلى مصر السفلى، يتكلم أهلها لغة واحدة، هي اللغة العروبية الأم قبل أن تتفرق هذه اللغة إلى اللهجات المختلفة كالآرامية والفينيقية والعبرية والعربية. راجعين في ذلك إلى المرجع الأساس التالي؛ علي العناني، ***الأساس في الأمم السامية ولغاتهم***، وتمت الاستعانة بهذا المرجع لنتبيّن بأن اللغة العبرية ليست لغة مستقلة بذاتها كما يدعي البعض، حيث أنها جزء لا يتجزء من اللغة الأم كونها أحد الفروع العديدة التي اقتبست أبجدياتها من الأبجدية الكنعانية الأصل.

[]

1. **ابراهيم أبو الأنبياء :** إن دراسة تاريخ اليهود القديم لا يمكن أن تتأتى لنا على الوجه الصحيح، إلا عن طريق دراسة تاريخ أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم الخليل، فإن عصر سيدنا إبراهيم يرجع تاريخياً إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وهو عصر قائم بذاته بلغته وقوميته وديانته، وسابق لعصر سيدنا موسى الذي جاء لاحقاً بسبعمائة عام، كما أنه لا صلة له بعصر اليهود الذي يأتي بعد عصر ابراهيم الخليل بحوالي ألف وخمسمائة عام[12].

اختلف المؤرخون في تحديد البناء النسبي لأبو الأنبياء إبراهيم الخليل، حيث يقال له "ابرام" ومعناه في اللغة العبرية الأب الرفيع أو الأب المكرم[13]، تغير اسمه في ما بعد من ابرام إلى إبراهيم ومعناه أبو الجمهور بعد أن وعده الله بأن يجعله أباً للشعوب، ومؤسس للعبرانيين[14]، ويذهب البعض إلى القول أن نسبه يعود إلى إبراهيم بن تارخ بن فاخور بن ساروغ بن أرعو بن فالغ بن غابر بن شالع بن قينان بن أرفخشد بن سام بن نوح[15]، أما ابن خلدون فقد أورد نسب إبراهيم فقال: هو إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ أو ساروخ بن عابر أو عنبر بن شارخ أو شليخ بن ارفخشد بن سام بن نوح، وفي التوراة هو إبراهيم هو ابرام بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فادج بن عابر بن شالخ بن ارفكشد بن سام بن نوح[16].

تجمع التقاليد العبرية على أن مسقط رأس الخليل عليه السلام إنما كان مدينة "أور" والتي دعوها "أور الكلدانيين" وذلك طبقاً لروايات عديدة في أسفار التوراة. وعلى هذا الأساس آمن اليهود القدامى بأن الموطن الأصلي لسلفهم "إبراهيم" إنما كان في منطقة الفرات الأدنى[17]. وهنا يطرح السؤال الذي شغل بال المؤرخين اليهود وهو: هل من صلة تربط اليهود بإبراهيم الخليل؟ لقد أجاب الكثير من المؤرخين على هذا السؤال بشكل يتفق مع ما جاء في التوراة ـ ربما انسجاماً مع شعورهم الديني ـ وقد بين بعضهم أن جماعة إبراهيم التي كانت تقطن في أور الكلدانيين بحسب التوراة هي جماعة بدوية تعيش على الرعي، وأن نزاعاً ما هو الذي دفع الجماعة إلى الهجرة بعيدًا عن موطنها[18].

على أن هناك من يذهب إلى أن مدينة "أور" التي ورد ذكرها في التوراة على أن إبراهيم الخليل قد قدم منها، لا تقع على الخليج العربي وليست في بابل، بل هي من إقليم العراق الأعلى في منطقة الجزيرة بين دجلة والفرات، ويعتمد أصحاب هذا الاتجاه على أن هناك أدلة أخرى في التوراة نفسها تشير إلى مكان آخر، غير "أور" المشهورة في منطقة الفرات الأدنى[19]. وهكذا فإن هناك رأيين فيما يختص بموطن إبراهيم الخليل الأصلي، وكل منهما يعتمد في الدرجة الأولى على نصوص التوراة، والتضارب بين نصوص التوراة أمر معروف، ونظائره كثيرة. هذا وقد ذهبت بعض آراء المؤرخين المسلمين إلى أن موطن الخليل عليه السلام، إنما كان في

"ارم النهرين" حران حالياً، حيث كانت العشائر الآرامية التي ينتمون إليها قد استقرت في منابع نهر البليخ بعد هجرتها من الجزيرة العربية، ثم نزحت فروع من هذه القبائل إلى جنوبي العراق (منطقة بابل) فكان إبراهيم الخليل من ذريتها[20]. وهذا الرأي أقرب إلى الصواب.

أما قوم سيدنا إبراهيم، فهناك من يجعلهم من المجموعة الأرامية التي تزوج منها إسحاق ويعقوب، سواء صح هذا أم لا، فإن قوم إبراهيم كانوا قد خرجوا من الجزيرة العربية التي نشئوا فيها كجماعة من الجماعات العروبية (السامية) العديدة[21]، فقوم إبراهيم اذاً يرتبطون بالجزيرة العربية بلغتها الأم وبقبائلها التي سميت فيما بعد بالعرب البائدة لانقراضها، ويعتبر المؤرخون أن قبائل العرب البائدة أو العرب العاربة هي القبائل الآرامية التي ينتمي إليها إبراهيم الخليل، فكانوا ينسبون شعوب العرب البائدة جميعاً إلى ارم ويسمونها بالأرمان[22].

بعد أن تحدثنا عن نسب سيدنا إبراهيم وقومه من الضروري الإشارة إلى أن دعوة سيدنا إبراهيم تقوم على وحدانية الله الخالصة أول دعوة عامة للتوحيد في تاريخ البشرية بالمعنى الدقيق لمصطلح التوحيد، و هي عروبية لغةً ووطناً، ولا صلة لها بالدين اليهودي وسيدنا موسى الذي جاء بعدها بسبعمائة عام من هذه الدعوة فهم عصرين منفصلين كما ذكرنا، بل أن دعوة سيدنا إبراهيم كانت لجميع البشر وكانت بداية لظهور الديانات السماوية. فأن الله سبحانه وتعالى جعل في سلالته النبوة والكتاب، فجميع الأنبياء الذين جاؤوا من بعده هم أحفاده وأبناؤه، إلا أن جاءت رسالة سيدنا محمد عليه السلام، خاتم الأنبياء، التي نزلت عليه باللغة العربية أيضاً، حيث أن اللغة التي كان يتكلم بها سيدنا ابراهيم الخليل هي اللغة العربية الأم التي وطنها الأصلي موطن سيدنا محمد[23].

إن دعوة الخليل قد اقترنت بالتوحيد، واقترنت بميزان العدل الإلهى واقترنت بإعلاء العبادة إلى مافوق الطبيعة[24]. ربما من المفاجئ عند بعض الناس أن يقال لهم أن ابراهيم عليه السلام كان عربياً، وأنه كان يتكلم اللغة العربية، ولكنها الحقيقة التاريخية التي لا تحتاج إلى تفسير نادر غير الترجمة الواقعية، وأن الفرض الغريب هو نسب إبراهيم إلى قوم غير قومه الذين هو منهم في الصميم[25]. وليس هذا أنه كان يتكلم العربية التي نكتبها اليوم ونقرآها، فلم يكن في العالم أحد يتكلم هذه اللغة في عصر ابراهيم ولا في العصور اللاحقة به إلى القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد، وإنما اللغة العربية المقصود بها هنا هي لغة الأقوام اللغة العروبية (الأم) التي كانت تعيش في شبه الجزيرة العربية وتهاجر منها وإليها في تلك الحقبة.

في العالم اليوم أكثر من ألف مليون إنسان يدينون بالموساوية والمسيحية والإسلام، وهي الأديان التي جاء بها موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، وهم الأنبياء الثلاث الكبار الذين ينتمون إلى الخليل ابراهيم[26]. وأيما كان الأمر، فإن **إبرهيم الخليل إنما كان عربياً خالصاً من سلالة العرب التي يطلق عليها المؤرخون المسلمون "العرب العاربة" والتي يرتفع نسبها إلى "سام بن نوح" عليه السلام، وبهذا جد العرب قبل أن يكون جد اليهود**[27].

2- **عصر النبي موسى (التوراة):** ظهر النبي موسى في حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد، أي بعد زمن إبراهيم الخليل عليه السلام بسبعمائة عام[28]. وهو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهت بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام[29]. ولد موسى في فترة الاضطرابات الصعبة التي سلط الله فيها فرعون على بني إسرائيل، وكان أصغر أولاد أبيه[30]. ذلك الوقت الذي أصدر فيه فرعون قراره بقتل من ولد لبني إسرائيل من الذكور، لذلك أوحى الله لأمه أن تضعه في تابوت وتلقيه، فشاء الله تعالى بعد ذلك أن ترى امرأة فرعون التي لم تكن تنجب، التابوت فتفتحه لترى مولوداً، فطلبت من زوجها أن يمكث عندهما ويكون ابناً لهم فنشأ وتربى في قصر فرعون حتى كلفه الله بالرسالة[31].

بعث الله نبيه موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، ولكن فرعون زاد إعراضاً واستكبارًا في الأرض، فجاء تأييد الله سبحانه وتعالى لنبيه موسى عليه السلام بآيات شاهدة بوحدانية الله، ومن هذه الآيات الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع... ، وبعد كل ما قدم موسى من دلائل وبراهين، لم يبق أمام فرعون إلا التخلص منه.

ولما بلغ التجبر والطغيان عند فرعون وقومه جاء أمر الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن يخرج بقومه ليلاً، فلما علم فرعون بخروجهم لحقهم بجيشه، توجه بنو إسرائيل اتجاه البحر فجعله الله لهم طريقاً يبساً، ومشى فيه فرعون وجنوده فأُغرقوا بكفرهم[32]، قال الله سبحانه: **(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ*آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ*فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ)** [33].

على أي حال، فلسنا نعرف من حياة موسى، عليه السلام، منذ ولادته حتى صدر شبابه، شيئاً على وجه اليقين، وأكبر اليقين أنه تولى منصباً وتبوأ مكانه في دولة فرعون. ويعين المؤرخون تاريخ خروج النبي موسى وأتباعه من مصر إلى أرض كنعان (فلسطين) في حوالي 1290 ق، م[34]. هؤلاء قوم موسى جاءوا الى أرض كنعان وهم غرباء عنها يتكلمون اللغة المصرية الفرعونية، ولم تكن لهم أية صلة ببني إسرائيل الذي كانوا قد جاءوا إلى مصر القديمة في عهد يوسف عليه السلام أي قبل عصر موسى بحوالي ستمائة عام والذين اندمجوا بشعب مصر[35]. الموسويون كما تدل الأحداث مصريون على الأرجح معظمهم من بقايا الهكسوس. وهم بطبيعة الحال كانوا يتكلمون باللغة المصرية وبها نقل موسى الشريعة والوصاية العشر التي كتبت باللغة الهيروغليفية. إلى أن أخذ هؤلاء الموسويون بعد مرور عدة قرون بلغة كنعان وتقاليدها وثقافتها ومارسوا حتى ديانتها الوثنية بعد أن انحرفوا عن ديانة موسى وشريعته[36].

تعد الكتب الدينية اليهودية ركناً مهماً من أركان الديانة اليهودية، لا سيما بشكل خاص التوراة التي يمتد عمرها إلى ما يقرب من ثلاث آلاف سنة، ما يجعلها واحدة من أقدم الكتب في العالم. ونظراً إلى أهمية التوراة ككتاب ديني فقد اختلف المؤرخون على طبيعتها، فمنهم من عدها إحدى الكتب المنزلة من الله بغض النظر عن انقسام هؤلاء بين مجموعة ترى أن الكتاب الحالي هو نفسه الكتاب القديم ومجموعة ترى أنه غيره أو محرف عن ذلك الكتاب، كذلك ترى جماعة أن التوراة ليست سوى كتاب كتبه البشر ثم نسبوه إلى الله ليعطوه أهمية أو قدسية. لكن أيا كانت طبيعة الكتاب فإن له أهمية خاصة كونه يمثل مصدراً لتاريخ حقبة مهمة من تاريخ المنطقة، على الرغم مما فيه من خلط وتغيير للحقائق، وهو لا يمثل مجرد كتاب يسرد التاريخ بل كتاباً تضمن الكثير من المعلومات الاجتماعية والقصص والأساطير، التي أخذ معظمها من تراث المنطقة ثم أحيطت برؤية يهودية ترتبط بديانتها التوحيدية. ولقد أثبت علماء التاريخ أن الكثير من القصص والشرائع الموجودة في التوراة تعود إلى موروث المنطقة الحضاري، لا سيما بشكل خاص حضارة وادي الرافدين التي مثلت أهم المصادر التي استقى منها اليهود فكرهم وديانتهم، فقد تبين أن شريعة اليهود وعناصر من قصة الخليقة وخلق آدم وقصة قابيل وهابيل وولادة موسى وقصة الطوفان وقصة أيوب والحكيم لقمان مأخوذة من التراث العراقي القديم، هذا بالإضافة إلى ما أخذوه عن المصريين والكنعانيين[37].

ويمكن أن نخلص إلى أن توراة موسى عليه السلام الأصلية لا يعرف شيء مؤكد عن مضمونها الأصلي، إذ لم يعثر على أي أثر لها، ولذلك هناك غموض حول اللغة التي كتبت بها، ولكن معظم القرائن تدل على أنها كتبت باللغة المصرية وبالهيروغليفية[38]. أما التوراة المتداولة في الوقت الحاضر فقد كتبها الكهنة والأحبار اليهود في القرن السادس عشر قبل الميلاد في بابل، أي بعد عصر النبي موسى بحوالي ثمانيمائة عام. وهذه بلا شك غير الشريعة التي نزلت على موسى، ويمكن أن نطلق عليها "توراة اليهود" لتميزها عن توراة موسى[39].

2. **صلة اللغة العبرية باللغة العروبية:** تنتمي اللغات العروبية إلى واحدة من أكبر الأسر اللغوية في العالم القديم والوسيط والحديث، وهي ما اصطلح عليها العلماء الغربيين تسمية السامية الأم، "اللغة العروبية" وهي لغة لا وجود لها الآن، في صورة وثائق أو نقوش مكتوبة[40]. وأول من أطلق تسمية "اللغات السامية" هو العالم الألماني "لودفيك شلوتزر" خلال بحث نشر في سنة 1781، مستخلصا التسمية من الجدول الخاص بأنساب نوح عليه السلام الوارد في التوراة[41]. وقد اعتمد في ذلك على ما جاء في الإصحاح العاشر من سفر التكوين الآيات 20-32، إذ كان من خلال بحثه يبحث عن تسمية مشتركة للعبريين والعرب والأحباش[42].

هناك إجماع بين الباحثين العرب على أن الكنعانين العرب كانوا أول من استعمل الحروف الهجائية، ثم نقلهم الكنعانين بدورهم بين سنة 850 -750 قبل الميلاد إلى الإغريقية واللاتينية، إلى أن نقلها الآراميون بعدهم إلى الشرق الأدنى كله. أضف إلى ذلك أن أقدم كتابة بالأحرف الهجائية أكتشفت في شبه جزيرة سيناء، وهذه الكتابات جاءت باللهجة الكنعانية القديمة وتعد حلقة الوصل بين الهيوغليفية التصويرية وبين الأبجدية ويعود تأريخها إلى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد[43].

إن تناول اللغة العبرية، ورصد تطورها وامتدادها التاريخي، وما أثير حولها من تساؤلات عديدة، بما يتعلق بنشوئها، وهل هي لغة مستقلة مترابطة، أم أنها نسيج من لغات ولهجات متنوعة، ولقد ساهم في خلق هذا التشويش مجموعة من المستشرقين الذين حاولوا إعطاء صفة الاستقلالية للغة العبرية، وبأنها لغة متكاملة، ونسبوا إليها العديد من اللغات الأخرى، التي لم تستطع البرهنة على سلامة هذا التوجه والمضمون، بل إن الوقائع استطاعت إثبات أن اللغة العبرية، ما هي إلا إحدى اللهجات الكنعانية والآرامية[44]، حيث تعد اللغة العبرية أهم اللهجات الكنعانية على الإطلاق وأوسعها انتشارا وأكثرها إنتاجا في مختلف فنون القول: في الدين والآداب والتاريخ والفلسفة والعلوم.

وعلى الرغم من تسميتها اللغة العبرية فهي ليست لغة جميع العبريين بل لغة فرع واحد من فروعهم وهو فرع بني إسرائيل[45]، فلقد استخدم العبريون الخط المشتق من الرسم الفينيقي في بداية أمرهم إلى نحو المائة العاشرة قبل الميلاد، وكان يعرف عند بني إسرائيل بالقلم العبري ثم استبدل اليهود هذا القلم بقلم آخر يشبه الآرامي عرف عندهم بعد أن ارتقى بالخط المربع أو الخط الآشوري، وكان اليهود يستعملون القلم المربع في الشؤون الدينية أما في الأعمال الدنيوية فقد ظلوا يستعملون الخط العبري القديم حتى نهاية القرن الثاني بعد الميلاد ومن المحتمل أن يكون اليهود قد أخذوا نظام الأبجدية عن الكنعانيين لأن هذا النظام موجود منذ زمن بعيد في الآداب الإسرائيلية بدليل أن بعض المزامير قد وجد مكتوبا به[46].

تأكيداً على هذا إن هناك من يظن لدى رؤيته مصادفة نصاً باللغة العبرية أن الحديث يدور عن لغة معقدة يصعب تعلمها خاصة أن حروفها الـ22 تكتب بشكل غريب يتخيله الكثيرون للوهلة الأولى قريباً من الصينية. لكن الحقيقة أن اللغة العبرية التي تكتب كالعربية من اليمين لليسار، ليست سوى إحدى اللغات العروبية (السامية)، كاللغة العربية تماماً، أي أنها وبكلمات أخرى ومثلما ذهب العديد من علماء اللغة أنها شقيقة اللغة العربية، ولدت من الأم نفسها وفي البيئة نفسها، حيث تشترك الأبجدية العربية مع الأبجدية العبرية التوراتية في 22 حرفاً، وهي: ء، ب، ج، د، ه، و، ز، ح، ط، ي، ك، ل، م، ن، س، ع، ف، ص، ق، ر، ش، ت. وتنفرد الأبجدية العربية بستة أحرف إضافية وهي: ث، خ، ذ، ظ، ض، غ[47].

لقد كان اليهود قديما كجميع الأمم العروبية لا يكتبون الحركات المستعملة الآن، بل كانت لديهم حروف مجردة من الحركات إلى أن أخذوا يستعملون بعض الحروف كعلامات للحركات تساعدهم على ضبط النطق وحفظ الكلمات من التحريف وكانت الألف والهاء والواو هي التي تقوم مقام الحركات[48]، وقد وصلت إلينا اللغة العبرية عن طريق ثلاثة مراجع أولاً الكتب التي دونت بها وهي أسفار العهد القديم وملحقاتها، وعدد كبير من المؤلفات التي دونها علماء اليهود في مختلف العصور، وثانياً بعض النقوش الأثرية على لوحات من الصخر والمعدن، وثالثاً استخدام اليهود لها في الصلاة والأدعية الدينية[49].

يتضح مما سبق الدور الرئيسي الذي لعبته الجزيرة العربية في تطوير الثقافة العالمية وتقدمها، حيث تفرع من الأبجدية الكنعانية القديمة عدة أبجديات يقسمها علماء اللغة إلى مجموعتين رئيسيتين، الأولى هي المجموعة السامية الشمالية والتي تفرع منها الفنيقية، والقرطاجية، والليبية، والآرامية والعبرية، والعربية وغيرها. أما المجموعة الثانية فهي السينائية العتيقة التي بدورها تفرعت إلى السامية الجنوبية والسبئية والاثيوبية وغيرها[50]. إذاً إن اللغة العبرية (بمعنى اليهودية) لم يكن لها أي دور في نشوء الكتابة الأبجدية وتطورها ويرجع ذلك كونها أحد الفروع العديدة التي اقتبست أبجديتها من الأبجدية الكنعانية الأصلية[51].

الخلاصة: إن اليهود واليهودية جزء لا يتجزء من حضارة وادي الرافدين القديمة التي لها ارتباطاً كلياً بحضارة الشرق الأدنى كوحدة جغرافية واحدة لا تقبل الانفصال. فالجزيرة العربية إذن هي مهد الحضارات العروبية ومهبط الديانات الثلاث، وبفضل تشابك مصالح هذه القبائل ببعض وتفاعل نشاطها في سبيل الحصول على حياة أفضل، تكون عالم عربي واحد، ووحدة جغرافية واحدة مترابطة الأجزاء. ولغتها في الأصل لغة واحدة، هي اللغة العروبية (السامية) الأم، إلى أن تفرعت منها باقي اللهجات الأخرى.

وأنه من الضروري الإشارة إلى مسألة مهمة ألا وهي أنه يجب أن نقول (العرب واليهود) وليس (اليهود والعرب) كما اعتاد الباحثون أن يفعلوا فيقدمون اسم اليهود على العرب في عناوين بحوثهم بمعنى أن اليهود هم الأقدم وأن العرب فرع متأخر، لكن العكس هو الصحيح لأن العرب هم العروبيون (الساميين) الأصليين الذين أسسوا أقدم الحضارات في الجزيرة العربية، أما اليهود فقد ظهروا في وقت متأخر ولم يتركوا أية حضارة قديمة خاصة بهم، إذ إنهم اقتبسوا حضارة الكنعانين أهل البلاد الأصليين ثم أخذوا يتحدثون بالعبرية المقتبسة من الآرامية (العربية الأصل). فيتضح مما تقدم أن اليهود لم تكن لهم أية مساهمة في تقدم الحضارة الإنسانية فلغتهم مقتبسة من الآرامية وشرائعهم مأخوذة عن الكنعانيين والبابليين والمصريين، فهم جزء لا يتجزء من هذه الحضارات العروبية .

وأخيراً نستنتج أن الديانة اليهودية كانت ممهدة لظهور الديانات السماوية، وذلك من خلال أنها أولاً: نادت بالمرجعية التنزيهية حيث أن الله منزه عن كل شئ أي وحدانية الله وحده، وثانياً: بالرجوع إلى النشأة الأولى لهم، وانتقالهم عبر الزمن من منطقة إلى أخرى حتى وصولها إلى أرض كنعان، وثالثاً: من خلال إثباتنا أن اللغة العبرية ليست إلا فرع من فروع اللغة العروبية الأم. وكل ذلك يرمي إلى كونها ديانة عربية ذات أصول حضارية عروبية.

أضف إلى ذلك التوضيح بأن سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء لم يأتي لليهود كما يعتقد البعض، بل جاء بالمرجعية التوحيدية لجميع البشر، والتي نادت بها كل الديانات السماوية، وأن بني اسرائيل الذي قدم منهم سيدنا إبراهيم هم قبائل عاشت في تلك الفترة، وهاجرت من مكان إلى آخر إلى أن وصلت إلى مصر واختلطت مع شعب مصر إلى أن جاء سيدنا موسى، لذلك يجب التميز بينهم وبين اليهود (الموسويين) حيث أنهم ظهروا بعد بني اسرائيل بستمائة عام. وكما ذكرنا سابقاً أن اليهود قد هاجروا من مصر إلى أرض كنعان في ذلك الوقت وذلك يثبت لنا أنهم غرباء ودخلاء على فلسطين، حيث أن سكان فلسطين الأصليين هم الكنعانيون الفينيقيون والعموريون. لذلك فيجب على كل عربي أن يتفهم حضارات هذه الأقوام التي دامت أكثر من ألفي سنة قبل عصر سيدنا موسى. فاعتمد اليهود في تطوير عقيدتهم على موروث المنطقة الثقافي بعد أن صبغوه بالصبغة اليهودية.

قائمة المصادروالمراجع

الكتب:

1. أحمد سوسة، ***العرب واليهود في التاريخ***، (القاهرة: العربي للأعلان والنشر والطباعة، 1993، ط2.
2. أحمد شحلان، ***مجمع البحرين من الفنيقية إلى العربية*** (دراسة مقارنة في المعجم واللغات العروبية (السامية)، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2009.
3. أحمد كمال الصليبي، ***حرب داود***، (الأردن: دار الشروق 1991، ط2).
4. اسرائيل ولفنسون، ***تاريخ اللغات السامية***، مصر: مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر، ط1، 1929.
5. ربحي كمال، ***قواعد اللغة العبريه***، بيروت: عالم الكتب، 1980.
6. رشاد الشامى، (أبراهام مالملت)، ***العبرانيون وبنو إسرائيل في العصور القديمة بين الرواية التوراتية والإكتشافات الأثرية***، القاهرة: مكتبة الإسكندرية، ط1، 2001.
7. عز الدين ابن الأثير، ***الكامل في التاريخ***، بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1997.
8. علي العناني واخرون، ***الاساس في الامم الساميه ولغاتهم***، القاهره، ط1، 1935.

9. علي عبد الواحد، ***فقه اللغة***، مصر: شركة نهضة، ط5، 2007.
10. كارل بروكلمان، ***فقه اللغات السامية***، ترجمة: رمضان عبد التواب، المملكة العربية السعودية: جامعة الرياض، 1977.
11. كمال الصليبي، عفيف الرزاز، ***التوراة جاءت من جزيرة العرب***، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ط6، 1997.
12. محمد بن جرير الطبري، ***تاريخ الرسل والملوك***، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، مطبعة المعارف، ط1، 1967.
13. محمد بيومي مهران، ***بنو إسرائيل منذ إبراهيم وحتى عصر موسى عليهما السلام***، الإسكندرية: دار المعارف الجامعية، ج1، ط2، 1999.
14. محمد خليفة حسن، **تاريخ الديانة اليهودية**، القاهرة: دار القباء للطباعة والنشر، 1998، ط2.
15. نخبة من الأساتذة، ***قاموس الكتاب المقدس***، بيروت: دار منهل الحياة، ط1، 1993.
16. نخبة من الأساتذة، ***قاموس الكتاب المقدس***، بيروت: مجمع الكنائس في الشرق الأدنى، ط2، 1971.

المقالات:

17. حكمت بلعاوي، **الجذور التاريخية للغة العبرية ومنابع تطورها**، مؤسسة فلسطين للثقافة. 2006.
18. أسامة كاظم الطائي، ***النبي إبراهيم دراسة تاريخية عن حياته الاجتماعية***، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية المجلد ٤ العدد ١، جامعة بابل، كلية التربية الإنسانية.

[*] طالب باحث بسلك الدكتوراه، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية سلا، جامعة محمد الخامس الرباط.

[1] محمد خليفة حسن، **تاريخ الديانة اليهودية**، (القاهرة: دار القباء للطباعة والنشر، 1998، ط2، ص189).

[2] ن، م، ص192.

[3] أحمد سوسة، ***العرب واليهود في التاريخ***، (القاهرة: العربي للإعلان والنشر والطباعة، 1993، ط2، المقدمة، ص، ن).

[4] كمال الصليبي، عفيف الرزاز، ***التوراة جاءت من جزيرة العرب***، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ط6، 1997، ص12.

[5] أحمد سوسة، ***العرب واليهود في التاريخ***، م، س، ص- ظ.

[6] ن، م، ص- ف.

[7] رشاد الشامى، (أبراهام مالمت)، ***العبرانيون وبنو إسرائيل في العصور القديمة بين الرواية التوراتية والإكتشافات الأثرية***، (القاهرة: مكتبة الإسكندرية، ط1، 2001، ص16).

[8] ن، م، ص- ع.

[9] أحمد كمال الصليبي، ***حرب داود***، (دار الشروق، الأردن: 1991، ط2، ص18).

[10] أحمد سوسة، ***العرب واليهود في التاريخ***، م، س، ص- ر).

[11] أحمد شحلان، ***مجمع البحرين من الفنيقية إلى العربية*** (دراسة مقارنة في المعجم واللغات العروبية (السامية)، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2009، ص24-ص28.

[12] أحمد سوسة، ***العرب واليهود في التاريخ***، م، س، ص- ت).

[13] نخبة من الأساتذة، ***قاموس الكتاب المقدس***، مجمع الكنائس في الشرق الأدنى، بيروت، ط2، 1971، ص949.

[14] نخبة من الأساتذة، ***قاموس الكتاب المقدس***، دار منهل الحياة، بيروت، ط1، 1993، ص1.

[15] محمد بن جرير الطبري، ***تاريخ الرسل والملوك***، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، مصر، مطبعة المعارف، 1967م، ط1، ص233.

[16] أسامة كاظم الطائي، ***النبي إبراهيم دراسة تاريخية عن حياته الاجتماعية***، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية المجلد ٤ العدد ١، جامعة بابل، كلية التربية الإنسانية، ص ١٣٢.

[17] محمد بيومي مهران، ***بنو إسرائيل منذ إبراهيم وحتى عصر موسى عليهما السلام***، م، س، ص66.

[18] سامي سعيد الأحمد، ***تاريخ فلسطين القديم***، بغداد، بدون دار نشر، 1979، ص 109.

[19] محمد بيومي مهران، ***بنو إسرائيل منذ إبراهيم وحتى عصر موسى عليهما السلام***، م، س، ص67.

[20] أحمد سوسة، ***العرب واليهود في التاريخ***، م، س، ص- د).

[21] محمد بيومي مهران، ***بنو إسرائيل منذ إبراهيم وحتى عصر موسى عليهما السلام***، م، س، ص63.

[22] أحمد سوسة، ***العرب واليهود في التاريخ***، م، س، ص- د).

[23] (ن، م، ص- ح).

[24] عباس محمود العقاد، ***ابراهيم أبو الأنبياء***، بيروت: منشورات المكتبة العصرية، ص4 .

[25] ن، م، ص131 .

[26] ن، م، ص4 .

[27] أحمد سوسة، ***العرب واليهود في التاريخ***، م، س، ص- د.

[28] ن، م، ص- ذ.

[29] عز الدين ابن الأثير، ***الكامل في التاريخ***، بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1997، ص150.

[30] محمد بيومي مهران، ***بنو إسرائيل منذ إبراهيم وحتى عصر موسى عليهما السلام***، م، س، ص67.

[31] أحمد غلوش، ***دعوة الرسل عليهم السلام***، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، ص267.

[32] ن، م، 268.

[33] القرآن الكريم، ***سورة يونس***، آية:90-92.

[34] أحمد سوسة، ***العرب واليهود في التاريخ***، م، س، ص 285).

[35] ن، م، ، ص- ط.

[36] ن، م، ص- ر.

[37] أحمد سوسة، ***العرب واليهود في التاريخ***، م، س، ص 179-225).

[38] أحمد سوسة، ***العرب واليهود في التاريخ***، ص-ل.

[39] ن، م، ص-ر.

[40] كارل بروكلمان، ***فقه اللغات السامية***، ترجمة: رمضان عبد التواب، (المملكة العربية السعودية: جامعة الرياض، 1977، ص5.

[41] اسرائيل ولفنسون، ***تاريخ اللغات السامية***، مصر: مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر، ط1، 1929، ص10.

[42] كارل بروكلمان: ***فقه اللغات السامية***، م، س، ص11.

[43] أحمد سوسة، ***العرب واليهود في التاريخ***، م، س، ص-130.

[44] حكمت بلعاوي، **الجذور التاريخية للغة العبرية ومنابع تطورها**، مؤسسة فلسطين للثقافة. 2006..

[45] ربحي كمال، ***قواعد اللغة العبريه***، بيروت: عالم الكتب، 1980، ص34.

[46] علي العناني واخرون، ***الاساس في الامم الساميه ولغاتهم***، القاهره، ط1، 1935، ص33.

[47] كمال الصليبي، عفيف الرزاز، ***التوراة جاءت من جزيرة العرب***، م، س، ص21.

[48] علي العناني، ***الاساس في الامم الساميه ولغاتهم***، م، س، ص59.

[49] علي عبد الواحد، ***فقه اللغة***، مصر: شركة نهضة، ط5، 2007، ص39.

[50] أحمد سوسة، ***العرب واليهود في التاريخ*** م، ، س ص 136.

[51] ن، م، ص 136.